التطور الحضاري لمصر
في زمن الطولونيين

إعداد
الاستاذالدكتور/ منيرة بنت مدعث القحطاني
أستاذ التاريخ بقسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن
المملكة العربية السعودية
الرياض-1441هـ/2020م

الملخص

أسهمت شعوب الأرض التي دخلت الإسلام في بناء الحضارة الإسلامية، وكانت مصر من أوفر هذه البيئات إسهاماً، وقد شهد النصف الأخير من القرن الثالث الهجري بداية فصل جديد في تاريخ مصر الإسلامية؛ تمثل بقيام الدولة الطولونية، التي شكلت منطلقاً لبداية الازدهار في تاريخ حضارة مصر. وهناك عدد من العوامل التي كان لها دور في إبراز هذه الحضارة، منها: التأخر الحضاري الذي سبق قيام الدولة الطولونية، فقد شمل ذلك نواحي الحياة كلها، بسبب سياسة العباسيين، في تغيير الولاة باستمرار؛ خوفاً من استقلالهم بالبلاد.

تمكن أحمد بن طولون من القضاء على الثورات في مصر، وبناء جيش قوي، وشهدت البلاد استقراراً وتطوراً، واستقلالاً ذاتياً، وصاحب ذلك تطور في الحياة الحضارية؛ لأن ابن طولون حرص على القيام بإنجازات حضارية تميز عهده؛ لتثبيت سلطانه، وأن يبدو البلاط الطولوني في حياته في مستوى لا يقل عن مستوى البلاط الخلافي.

أثبت ابن طولون أنه كان نموذجاً للحاكم المثالي، من حيث تبني الإصلاح والعدل، والاعتناء بشؤون دولته، فلم تشغله طموحاته في زيادة رقعة دولته عن الاهتمام بجوانب الإصلاح، ومذا يحقق الحياة الكريمة لرعيته؛ ولذا اتسم عهده بأنه عهد سلام شامل، ورخاء، وحضارة، وعمران، وفنون، وخلّف ابن طولون آثاراً رائعة تجسد عصره، ولا يزال بعضها باقياً إلى يومنا هذا.

التمهيد:

قامت الدولة العباسية بعد سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ/751م، واستقرت دعائمها في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور[1]، الذي يعد أول خليفة عباسي يتخذ من الترك بطانة، وموظفين؛ فقد قرّب حماداً التركي، ووثق به، وجعله من خاصته، وأمناء سرّه[2]. وسار على ذلك الخليفة المهدي، ثم هارون الرشيد، الذي توسع في استخدام الترك[3]، واستخدمهم المأمون، فازدحمت وفودهم على بابه، وبالغ في إكرامهم[4]. ووصل بعض الأتراك إلى مناصب قيادية، ومنهم طولون والد أحمد بن

طولون؛ فقد عينه المأمون والياً على أشروسنة، وكان ابنه الأفشين حيدر من كبار قادة المأمون[5]. ولما بويع المعتصم بالله حظوا بعطفه، ويذكر أن المعتصم لم يكن يثق بالعرب، وأصبح للأتراك أثر كبير في الحياة السياسية، والاجتماعية، وشكل الحرس التركي دعامة من دعائم الخلافة أيام حكمه، ومن تأثيراتهم أنه نقل عاصمة الخلافة إلى سامراء، وأسكن الترك فيها[6].

تمكن الأتراك في عهد الواثق من تثبيت أقدامهم في الحكم، والحصول على نفوذ كبير، فقد خلع الخليفة على قائده التركي أشناس لقب السلطان[7]، وأسند إليه أعمال الجزيرة الفراتية، والشام، ومصر؛ وقد أسهم هذا في زيادة نفوذهم في العراق، وخارجها[8]؛ وأحاطوا الخليفة بمن يراقب تحركاته، ويشاركه المناقشات السياسية[9]. هذه الخطوات كانت تدبيراً سياسياً على طريق انفصال الولايات عن الإدارة المركزية؛ منتهزين ضعف السلطة المركزية، وعدم معرفتها بما يجري في الولايات؛ لاطمئنانه إلى من ولوهم من الترك[10]؛ وبسبب هذا أصبحوا يتدخلون في اختيار الخلفاء وتوليتهم، والتخلص منهم إذا تطلب الأمر ذلك[11].

الزيادة في نفوذ الأتراك في عهد الدولة العباسية جعل سلطانهم يفوق سلطان الخلفاء العباسيين؛ وهذا الأمر شجع بعض الولاة على تأسيس حُكم وراثيٍّ مستقلٍّ، لهم ولأبنائهم ولأفراد أسرهم من بعدهم، وفي سبيل تحقيق ذلك كانوا يدينون بالولاء للخلافة العباسية، وقد حصلوا على التفويض بالحكم لهم، ولأبنائهم من بعدهم، وقد عُرفتْ هذه الظاهرة باسم الدويلات المستقلة، ومنها الدولة الطولونية.

الدولة الطولونية:

تمكن الأتراك من السيطرة على الأمور في الدولة العباسية، وشكلوا دويلاتٍ مستقلة، أبرزها قيام الدولة الطولونية في مصر على يد أحمد بن طولون التغزغزي التركي، ثم امتدت باتجاه الشام؛ لتكون أول دويلة تنفصل عن الدولة العباسية، وتتفرد بحكم الديار المصرية، والشامية[12]. وتشير كتب التراجم إلى أن أسرته كانت تقيم في بخارى، وأن والده طولون -الذي نسبت إليه الدولة- كان مملوكاً جيء به إلى نوح بن أسد الساماني، فأرسله إلى الخليفة المأمون مع من أرسل من المماليك الترك سنة 200هـ/816م[13]؛ فأعجب الخليفة المأمون بنجابته وإخلاصه، ولذا حظي بمكانة كبيرة، وصار من مماليكه، ثم أصبح من أمرائه، ولقّب بأمير الستر، واستمرَّ يشغل هذا المنصب عشرين سنة[14]، وأنجب طولون عدداً من الأبناء، منهم ابنه أحمد، الذي ولد في 23رمضان عام 220هـ/835م في بغداد[15].

نشأ ابن طولون نشأة عسكرية في سامراء في كنف والده، واشتهر بالتقوى والصلاح، والشدة والبأس؛ وتوفي والده سنة240هـ/854م، فتزوجت أمه أحد زعماء الجند الأتراك، الذي وجد عنده عناية واهتماماً؛ مما ساعده في الوصول إلى العمل في حرس الخليفة[16]، وما لبث أن فوض إليه الخليفة العباسي المتوكل ما كان لأبيه من

الأعمال العسكرية المختلفة، ثم تزوج من خاتون ابنة يارجوخ، وهو من كبار قواد الأتراك، وقد ساعده في الاشتراك في الصوائف التي تغزو الروم، وعينه الوزير عبيد الله بن خاقان في طرسوس[17]. وتمكن من الاستيلاء على إمرة الثغور، ودمشق، وديار مصر[18]. وبعد مقتل الخليفة المتوكل، وأخذ البيعة للمستعين، عاد إلى سامراء ليكون قريباً من الأحداث[19]؛ لأنه كان يتمتع باحترام الترك وثقتهم، ونال ثقة الخلافة واحترامها، ووصفت علاقته بكل من الخليفتين المتوكل، والمستعين بالجيدة، إلا أن صلته بالأخير ازدادت بعد عودته من طرسوس؛ ويفهم من المصادر التاريخية أن علاقة بالخليفة كانت طيبة؛ بسبب إنقاذه قافلة تجارية قادمة من بلاد الروم، محملة بالهدايا الثمينة للخليفة من قطاع الطرق[20].

ومن الأحداث التي شهدها أنه رافق الخليفة المستعين إلى معتقله في واسط[21]، وحاول منع الأتراك من قتل الخليفة، لكنهم أصروا، وبعد أن قتلوه دفن جثته، وعاد إلى سامراء[22]، فوجد أن النفوذ والسلطان أصبح في أيدي الجند الأتراك، الذين نصبوا المعتز على عرش الخلافة، وبرز بايكباك التركي على مسرح الأحداث، وكان زوج أمه أقوى هؤلاء الجند وأعظمهم شأناً، وسبق له أن حصل من الخليفة سنة 254 هـ/868م على إقطاع مصر ونواحيها[23].

حرص بايكباك على البقاء في سامراء؛ ليكون قريباً من الأحداث؛ وهذا ما دفعه لتعيين ابن زوجته أحمد بن طولون نائباً عنه في مصر، فسار إليها في رمضان سنة254 هـ/868م، واستقدم معه بعض الجند لمواجهة أي ثورة يقوم بها الشعب[24].

طلب الخليفة المهتدي من ابن طولون أن يتولى إخضاع عامل فلسطين المتمرد على الدولة؛ فوجدها ابن طولون فرصة لإنشاء جيش كبير من المماليك، والترك، والروم، والزنوج، ودعم حكمه بهم، وأخذ من الجند، والناس البيعة لنفسه على أن يعادوا من عاداه، ويوالوا من والاه، وبفضل هذا الجيش استطاع أن يتغلب على الفتن الداخلية التي قامت عليه[26]. ولما طلب الخليفة منه أن يتخلى عن منصبه لوالي الشام أماجور رفض، وتوجه إلى الشام وضمها لمصر، ومنذ ذلك الوقت أصبحت دولة ابن طولون مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية[27].

المكاسب السياسية التي حققها ابن طولون لم تدفعه للتفكير بالانفصال الديني عن الدولة العباسيىة؛ لأن الخلافة في نظر جمهور المسلمين كانت تمثل ضرورة دينية لاستمرار الوحدة الإسلامية؛ واستمر الدعاء للخليفة على المنابر اعترافاً بسلطته الدينية[28]. لقد حكم ابن طولون زهاء ستة عشر عاماً[30]، دافع فيها عن الحقوق التي اكتسبها إلى أن توفي سنة270هـ/884 م وعمره أقل من خمسين عاماً[29]، وترك دولة موطدة الأركان.

بعد وفاة أحمد بن طولون خلفه ابنه خمارويه، فعمل على تذليل العقبات التي واجهته، وأضاف أموراً كثيرة إلى حاضرة أبيه الزاهرة، ووطد علاقته بالخلافة

العباسية؛ فزوج ابنته أسماء المعروفة بـــ(قطر الندى) من الخليفة العباسي المعتضد، وبالغ في تجهيزها، مما أدى إلى إفلاس مالية البلاد. وبعد خمارويه تولى زمام الدولة ولدان صغيران من أفراد البيت الطولوني، تنقصهم الحنكة السياسية؛ ولذا لم يتمكنا من مقاومة جهود الخليفة العباسي من أجل استرداد ولايتي مصر، وسوريا، اللتين ظلتا تحت سلطان الطولونيين قرابة سبعاً وثلاثين سنة. وتمكن القائد العباسي محمد بن سليمان من دخول مدينة القطائع سنة292هـ/905م، وقتل جنود الطولونيين من السودان، وخرب مبانيها، وعاث فساداً أربعة أشهر، ولم يبق منها سوى جامع أحمد بن طولون، وبهذا عادت العسكر مقراً للحكومة[31].

المبحث الأول: المظاهر الحضارية في الدولة الطولونية:

حرص أحمد بن طولون على تكوين جيش قوي لتدعيم دولته، وبعد أن تحقق له ذلك عُني بشؤون دولته على المستويات كلها، ولم تشغله الطموحات السياسية عن جوانب الإصلاح والعناية بما يحقق الحياة الكريمة لرعيته، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

أ – النواحي الإدارية:

لم يغير العرب في أنظمة الإدارة بمصر بعد أن فتحوها، واكتفوا بشغل المناصب الرئيسة فيها، ومن أهم أعمال والي مصر الإشراف على جباية الضرائب، وإرسالها إلى الخليفة. أما أحمد بن طولون فقد غيَّر هذا المفهوم، فجمع مقاليد السلطة في يده، واتخذ من الإجراءات ما يجعله الرجل الوحيد في مصر، فعزل عامل الخراج الذي عينه العباسيون على مصر، وتحكم في الشؤون المالية إلى جانب الشؤون الإدارية، والعسكرية، وأشرف بشكل مباشر على الخراج، وعلى الولايات الأخرى التابعة لمصر، وشيّد عاصمته الجديدة(القطائع)، وبناها على غرار بغداد وسامراء، وبنى لنفسه قصراً يليق بالأمراء، واتخذ لنفسه عرشاً وموكباً عظيماً، لتأكيد إمارته على مصر. ولترسيخ نفوذه فيها نظَّم العديد من الدواوين، والوظائف، أبرزها:

* الحاجب:

اقتصرت مهمة الحاجب بادئ الأمر على الوقوف في باب الأمير، ثم توسعت مهامه ليصبح -في بعض الأحيان- مستشاراً للأمير[32]. ويُذكر أن ابن طولون كان يقلّد بلاط الخليفة العباسي في العراق، من حيث أساليب الإدارة، فاتخذ عدداً من الحجّاب، وكلَّف حاجباً يتولى الأعمال التنظيمية والمراسيمية في البلاط الأميري، وكان الحاجب يتخذ لنفسه بعض المعاونين، يُطلقُ عليهم السعاة[33]. وبتتبع تاريخ الدولة الطولونية، لم نجد أن هذا لقب(السعاة) أطلق على موظف كبير، وأغلب الظن أن أحمد بن طولون لم يسمح لأحد من أتباعه أن يزداد نفوذه؛ يؤكد ذلك أن الذي كان يقوم بوظيفة الحاجب الأكبر في عصره تابع اسمه نسيم، ولم يذكر أنه حمل هذا اللقب؛ على الرغم أن الأمير كان يثق به، ويكلّفه بكثير من المهام[34].

* الوزير:

لم يتخذ أحمد بن طولون وزيراً لنفسه؛ لأنه كان يرفض أن يصل أعوانه إلى مراكز النفوذ، وظلت مصر ولاية بدون وزير؛ وربما كان سبب ذلك راجعاً إلى ما شاهده في بغداد وسامراء، من استبداد الوزراء الترك وطغيانهم؛ لذلك فضل إبقاء السلطات كلها في يده، مع تكليف بعض الثقات بمهام مؤقتة عند الضرورة، ومن ذلك أنه لما سافر إلى الشام استخلف على مصر ابنه العباس، وجعل الواسطي ناصحاً ووزيراً[35]. ونعتقد أن إطلاق الوزير هنا إنما هو صفة لمهامه، وليس لقباً يدل على منصب وظيفي[36].

* الشرطة:

نظام الشرطة في الدولة الطولونية في مصر كان شبيهاً بنظام الشرطة في بغداد؛ يتولى صاحب الشرطة تطبيق القوانين، وتنفيذ العقوبات التأديبية، ومنع الجريمة، ونشر الفضيلة[37]. وينقسم نظام الشرطة فيها إلى قسمين: أحدهما: الشرطة العليا، والآخر: الشرطة السفلى. ويرجع سبب التسمية بالشرطة العليا إلى الموقع والحدود؛ لأن مدينة العسكر لما أنشئت على يد أول الولاة العباسيين في مصر، أنشأ شرطة جديدة سميت الشرطة العليا، انحصر اختصاصها بالنظر في أحوال الطبقة العليا من القادة، والعلماء، والعظماء. أما الشرطة السفلى فكانت تختص بإقامة العدل، وتوطيد الأمن بين عامة الناس[38]. وكان صاحب الشرطة في عهد أحمد بن طولون موظفاً خاضعاً للأمير، وله نفوذ كبير، وله أعوان في سائر البلاد؛ وأغلب الظن أن من شغلوا هذا المنصب كانوا من الأتراك، ومن أبرز من تولى هذا المنصب موسى بن طونيق[39].

* البريد:

وظيفة صاحب البريد من الوظائف الإدارية في العصر الطولوني؛ كان المعين فيها يُستخدم لنقل الأخبار الرسمية من مقر الخلافة إلى الولايات، ثم استخدمه الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاة الأقاليم، وأصبح من واجبات عمّال البريد كتابة التقارير وإرسالها إلى الحكومة المركزية[40]. ومنذ أن تولى ابن طولون الأمور في مصر خصص موظفين لذلك، وفصل بين عمال البريد، وبين الجواسيس والشرطة؛ وكان مقر عامل البريد في عاصمة الدولة. واتخذ صاحب البريد في العصر الطولوني مساعدين يمثلون الدولة في أنحاء مصر[41]، ومن أبرز موظفي البريد في العصر الطولوني الحسن بن مهاجر[42]. وأشار القلقشندي إلى أن اهتمام إدارة البريد في العصر الطولوني بالحمام الزاجل كوسيلة من وسائل نقل الرسائل[43].

* النظام القضائي:

لـمّـا قَدِمَ أحمد بن طولون إلى مصر اهتم بالقضاء اهتماماً كبيراً، وكان القضاة يُنتخبُون من الفقهاء، والأتقياء، وذوي النزاهة، وكانت اختصاصاتهم واسعة ومتعددة،

لكن ابن طولون حدّدها لئلا يتسع نفوذهم وسلطانهم. ولما وصل ابن طولون إلى مصر، وجد على القضاة بكار بن قتيبة الذي كان دعامة الحياة الدينية[45] فأبقى عليه في القضاء، ثم جرده من كثير من اختصاصاته[46]. ويذكر أن القضاة كانوا في العصر الطولوني يتولون النظر في المظالم، ويسعون في الإصلاح بين الناس؛ ولذا حظوا بمكانة اجتماعية[47]. ومن الإجراءات التي اتبعها ابن طولون أن تعيين القضاة كان يتم بموافقة الخليفة[48]؛ وهذا يعارض استقلال قضاء مصر. وبعد وفاة القاضي بكار، توالى منصب القضاء عدد من القضاة، أبرزهم ابن عبده[49].

– النواحي العسكرية:(النظام الحربي)

أولاً: الجيش:

أدرك أحمد بن طولون أن توطيد نفوذه لن يكون إلا عن طريق تأسيس جيش مدرب يدين له بالولاء، ويعتمد عليه؛ ولذا كان هذا من أولوياته عند توليه زمام مصر؛ فقد استطاع تكوين أول جيش مستقل بمصر في العصور الوسطى، فقد استثمر فرصة قيام عيسى بن الشيخ والي فلسطين والأردن بشق الطاعة على الخليفة العباسي مستغلاً اضطراب أوضاع الخلافة، وضعف إمكاناتها، فقطع الخراج عن بغداد، وفكّر في الاستيلاء على مصر بعد وفاة الخليفة المهتدي، ورفض الاعتراف بسلطان المعتمد، وتخلى عن البيعة اعتداداً بقوته[50]؛ لكن المعتمد أرسل إلى ابن طولون يطلب منه التأهب لمحاربته، فسارع ابن طولون إلى تكوين جيش قوي، مستفيداً من التجربة التي عاشها في بغداد، فخشي أن يغلب على الجيش عنصر واحد، ويوجه أمور الدولة لصالحه[51]؛ لذلك لم يتخذ جنده من الترك فقط؛ حرصاً منه على ألا تنتقل الفتن والدسائس إلى مصر، واستبعد أيضاً الاعتماد الكلي في الجيش على العرب، كي لا يكرر تجربة الأغالبة مع العنصر العربي التي أدت إلى صراعات مريرة[52]؛ فجاء جيشه متنوعاً؛ من الترك، والزنج، والعرب، والروم، أربعة وعشرون ألفاً من الترك، وأربعون ألفاً من الزنوج، وسبعة آلاف من العرب، وبقية الجيش من أجناس أخرى، كالروم، والأفغان[53]؛ وجعل ضباطه من الترك المقربين إليه. ومن حرصه على استقطاب ولاء جيشه لدولته، أنه أغدق عليهم بسخاء[55]؛ ووفر لهم أسباب الراحة[54]؛ مما جعل هذا الجيش أداة مطيعة في يده[56].

بعد وفاة أحمد بن طولون، انتهج خمارويه المبالغة في النفقة على الجيش في الزي والسلاح، وتنمية القوة العسكرية لدولته، فاستقدم جنوداً من آسيا الوسطى من العنصر التركي، وطائفة من سكان البلاد الشامية، والمصريين، وجنَّد العرب المقيمين في منطقة الحوف الواقعة شرق دمياط، ودربهم وقربهم منه، وكانوا معروفين بالشجاعة والبأس وضخامة أجسامهم[57]، وخصص لكل طائفة دورها في القتال، وكان يعطي عناصر الجيش أعطيات بشكل منتظم، ويوزع عليهم الهبات في المناسبات، وأصبح لجنوده وقادته نفوذ أقوى مما كان في أيام أبيه[58]. وبعد وفاة

خمارويه خلفه ابنه أبو العساكر جيش، لكنه كان صبياً طائشاً منغمساً في اللهو، وأصبحت مصر ميداناً للضعف والفوضى، وخرجت الشام؛ فخلعه قواد جيشه، وقاموا بتولية أخيه الأصغر هارون، وفي عهده ظهر القرامطة، ولم يستطع إخراجهم من الشام؛ مما أدى إلى ضعف الدولة الطولونية؛ وتمكنت الخلافة العباسية من القضاء على دولتهم وتخريب عاصمتهم، بقيادة محمد بن سليمان[59].

ثانياً: الأسطول:

لم يقتصر اهتم الدولة الطولونية بالجيش البري، بل هتمت أيضاً بالأسطول البحري، فأنشأ أحمد بن طولون قوة بحرية لحماية سواحل مصر، وصد هجمات الدولة البيزنطية على سواحل الشام ومصر، والحفاظ على طريق الاتصال البحري بين الشام ومصر[60]؛ لكن اهتمامه بهذا جاء متأخراً عن تأسيس الجيش البري؛ لأن حاجته إلى الأسطول جاء بعد أن توسع في بلاد الشام؛ مما جعل الخليفة العباسي المعتمد بالله يرسل جيشاً بقيادة موسى بغا، لملاقاة ابن طولون والقضاء عليه، وأصبح من المحتم عليه مواجهة جيش الخليفة. ومن عنايته بالناحية البحرية لتدعيم الدفاع عن مصر قيامه ببناء حصن بجزيرة الروضة، وأبقائه على دار الصناعة فيها[61].

كان ابن طولون حريصاً على صناعة السفن الحربية بأنواعها، وبما يكفي لمواجهة أعدائه، وذكر ابن سعد أنه استقدم ملتزم الصناعة بالروضة، أبا كامن بن شجاع بن أسلم الحاسب[62]، وقال له: (كل ما تعمل لي من العدة فإنه يُكتفى بالقليل.... إلا المراكب فإن البحر لايتقيني ولا يخاف سورتي... فقدموا الحزم واستزيدوا من الإنفاق عليها تسلموا بتوفيق الله من معرة البحر)[63]. وعهد ابن طولون إلى أبي كامن بالإشراف على دار الصناعة إشرافاً دقيقاً، واختيار العمال، والصناع، والنفاطين، والنواتية، ممن يمتازون بالفطنة، والمهارة الفائقة، إضافة إلى الإشراف على صناعة المراكب. ومن أهم أنواع السفن التي أنتجتها دار الصناعة في عهده: العلابيات[64]، والحمائم[65]، والعشاريات[66]، والسناديل[67] وقوارب الخدمة، يقول المقريزي: "فاتخذ مائة مركب حربية، سوى ما ينضاف إليها من العلابيات، والحمائم، والعشارية، والسنابيك، وقوارب الخدمة، وعمد إلى سد وجه البحر الكبير..."[68].

بعد وفاة أحمد بن طولون استمر خمارويه في العناية بالأسطول، وبلغ عدد المراكب المرصودة للجهاد في أيام أحمد بن طولون مائة سفينة، فلما مات وتملك ابنه خمارويه، زاد عددها وعدتها، وكانت القطع البحرية ترابط بسواحل الشام تعزيزاً لجيوشه البرية[70]؛ لكن هذا الاهتمام تراجع بعد خمارويه، وأصبح عدد السفن محدوداً، ولم تستطيع هذه القوة البحرية حماية الدولة؛ يدل على هذا أن الخلافة العباسية لما قضت على الدولة الطولونية لم تستعن إلا بقوة صغيرة من الأسطول العباسي الذي كان راسياً بثغر طرسوس إضافة إلى الجيش البري[71].

ج – الناحية الاقتصادية:

عمل أحمد بن طولون والأمراء من بعده على النهوض باقتصاد مصر؛ ليكون عدتهم في إتمام الاستقلال، وفي سبيل ذلك أنفق ابن طولون كثيراً من الأموال في تأسيس جيشه، وبناء أسطوله، وكان يرسل الأموال للخلفاء في بغداد، إضافة إلى الأموال الطائلة التي تركها بعد وفاته. وسار الأمراء من بعده على طريقته. وحرصت الدولة الطولونية على تشجيع وسائل الإنتاج الزراعي، والصناعي، والتجاري، فانتشر الرخاء في البلاد، وتضاعف الدخل القومي للدولة.

ومن الموارد الاقتصادية لمصر في العهد الطولوني:

أولاً: الزراعة:

عُني أحمد بن طولون بتشجيع الزراعة، بكونها مصدراً أساسياً من مصادر الدخل القومي، فشجع على استغلال الأراضي، والحصول على أوفر قسط من الضرائب، وأصبحت جبايته خاضعة تماماً له، بعد أن كانت خاضعة للخلافة مباشرة، إضافة إلى أنه ضبط الجباية بكافة السبل، واستقدام الموظفين المعروفين بالكفاءة والنزاهة، وحمى الفلاحين من ظلم الجباة بإيجاد مراقبة على الجباة؛ وأصبح الفلاح في ظل هذه الإجراءات ينعم بالاستقرار، وقادراً على الإنتاج[72]؛ وهذا لا يعني الاختفاء الكلي للتعسف، لكنه كان محدوداً إن وجد. وقد أشار البلوي في رواياته إلى بعض النماذج التعسفية لبعض الجباة في عصر ابن طولون، ومن ذلك أن فلاحاً كهلاً جاء إلى ابن طولون متظلماً عامل الخراج، ومما قاله:(ما ترك لي ابن دشومة بذات الساحل شيئاً لأرجع إليه، وكنت مستوراً فهتكني، وكنت غنياً فأفقرني، حتى صرت بين الزارعين مرحوماً فقيراً)[73]، على أن ابن طولون كان همه الأول الرفق بالفلاح؛ لأنه يمثل أداة الإنتاج[74]؛ وتبين من كتابات المؤرخين ازدياد مساحة الأرض المزروعة نتيجة الاستقرار، يقول المقريزي[75]: استُغل في الزراعة نحو مليون فدان في العصر الطولوني، وكان هذا أعظم استغلال شهدته مصر في ذلك الوقت.

ومن الخدمات التي قدمتها الدولة للفلاحين في عهد ابن طولون العناية بالري؛ فعملت على إنشاء القناطر؛ وتعد القنطرة التي أنشأها عام 263هـ/ 876م، من أهم القناطر المائية القديمة بمصر، ولم يبق منها إلا برج المأخذ المشيد من الآجر، وبعض العقود القديمة[76]، كما شق الثُّرع، وأقام السدود، والجسور للانتفاع بماء النيل[77]. ومن الخدمات أيضاً مد الفلاحين بحاجتهم من البذور، والآلات الزراعية؛ وقد أدت جهود ابن طولون وتشجيعه الزراعة، إلى زيادة الإنتاج، وخفض أسعار الغلال؛ ويذكر أن أسعار الحبوب وصلت في عهده إلى أدنى مستوى[78].

ومما يبرز اهتمام الدولة الطولونية بالزراعة ما ذكر عن إقطاعات أحمد بن طولون، ومزارعه الخاصة التي كانت تدر دخلاً عظيماً، يخصصه لنفقاته، ونفقات مطابخه، وكان لذلك أثر على زيادة الخراج نتيجة لزيادة الأرض المزروعة[79].

وشهدت النهضة الزراعية في مصر تطوراً في زراعة البساتين في عهد خمارويه وولعه بهذا اللون من الزراعة[80]. ويصف الرحالة ناصر خسرو الاهتمام بالزراعة (بأنه رأى بمصر ناساً يتاجرون بالأشجار... ويضعونها على سطوح بيوتهم حتى يعتبر السطوح كأنها حدائق...)[81]. ومن الإجراءات التي اتبعتها الدولة في عهد خمارويه فرض العقوبات الشديدة على المتلاعبين بالأسعار[82].

ويذكر أن أحمد بن طولون قام بإصلاح مقياس النيل الذي أقامه والي مصر أسامة بن زيد التنوحي سنة 96هـ/715م، لقياس منسوب المياه، وقدَّر له ألف دينار[83]، وكان الغرض من إصلاحه، التعرف على منسوب المياه، وما يترتب عليه من انخفاض، أو فيضان، وتقديم المساعدات للفلاحين.

ثانياً: الصناعة:

ازدهرت الصناعة في عهد الدولة الطولونية، وتجلى ذلك في مظهرين:

الأول: استحداث صناعات لم تكن موجودة في البلاد؛ استجابة لمتطلبات الحركة الاستقلالية التي قام بها ابن طولون؛ ومن ذلك بناء دار صناعة السفن في الجزيرة في عهد ابن طولون، يقول الكندي:[84] "اجتهد أحمد بن طولون في بناء المراكب الحربية، وأطافتها بالجزيرة..."؛ فنشطت في عهده صناعة السفن الحربية، والتجارية، وأنشأ دار الصناعة التي صنعت أعداداً كثيرة ومتنوعة من السفن -سبق ذكرها-. ونظراً لقلة الأخشاب المناسبة لصناعة السفن في مصر، قام باستيراد الأخشاب من البلاد المجاورة، يقول المقريزي: "كان في الفسطاط في العصر الطولوني أسواق خشب كبيرة"[85]. واستمر الاهتمام بصناعة السفن في عهد ابنه خمارويه، وبلغ مجموع سفنه الكبيرة والصغيرة، الحربية والتجارية نحو ألف قطعة، منها نحو مائتي مركب مجهزة بالعدد، والسلاح[86].

وظهرت في العصر الطولوني صناعة الأسلحة الخفيفة، والثقيلة؛ من أجل تزويد الجند والحرس بما يحتاجون من الأسلحة، والدروع، ومعدات القتال[87]؛ ولتوفير ذلك أمر ابن طولون ببناء دار لصناعة الأسلحة، واشترط أن تمتاز بالجودة في الصنعة؛ وعهد بذلك إلى أصحاب الخبرة كما مرّ سابقاً[88]. وأبرز صناعة الأسلحة الثقيلة هي: المنجنيقات، والدبابات، والسلاسل، والأبراج، وقد استخدمها ابن طولون في محاصرته أنطاكية[89] وغيرها. واستمر نشاط صناعة الأسلحة في عهد خمارويه، وشهدت في عهده تطوراً ملحوظاً[90].

النوع الثاني من الصناعات:

عرفت مصر في العصر الطولوني نهضة صناعية أخرى كانت قائمة فيها من قبل، لكنها تطورت في هذا العصر؛ بسبب وجود الأسواق، والأموال، التي كانت عاملاً في نهضتها وتطورها؛ ومن أهم هذه الصناعات:

صناعة النسيج: نشطت في العصر الطولوني دُور الطراز في إنتاج المقادير الكبيرة من المنسوجات؛ تلبية لاحتياجات البلاط الطولوني، ومظاهر الدولة المستقلة[91]. وانقسمت هذه الدور إلى قسمين: مصانع حكومية تتولى عمل المنسوجات للخليفة، والأمراء، ورجال الدولة. ومصانع أهلية تمد التجار بحاجتهم من الأقمشة[92]. وأهم مراكز الصناعة هي: تنيس، وأشهر ما أنتجته الثوب الفخم الذي يصنع للخليفة خاصة، إضافة إلى الكتان الأبيض، وغيره[93]. وديبق، واشتهرت بإنتاج القماش الديبقي الثقيل. وتوزعت مراكز صناعة النسيج على عدد من المدن، االفيوم، والإسكندرية، وغيرهما. واشتهرت أخميم، وأسيوط بالمنسوجات الصوفية الرفيعة[94]. وكانت هذه المصانع تستوعب أعداداً كبيرة من الصناع، يعملون ليلاً ونهاراً لإمداد القصر باحتياجاته[95].

راجت في العصر الطولوني كثير من الصناعات الزراعية، مثل: صناعة زيت المصابيح، وصناعة السكر المستخرج من القصب، والأصباغ التي كانت تستخرج من الأشجار، وغيرها[96]. إضافة إلى صناعة الورق من البردي؛ حيث احتكرت مصر في العصر الطولوني صناعة الورق، وانتشرت محلات الوراقة في أنحاء البلاد، وأصبحت لهم أسواق خاصة[97].

ومن الصناعات التي شهدها العصر الطولوني استخراج المعادن وصناعتها، والتفنن في ذلك، ومن أبرز تلك المعادن الذهب[98]، وتوضح المصادر التاريخية اهتمام الطولونيين بأنواع الحلي، وأدوات الترف والزينة، وتجلى ذلك فيما ضمته ثرواتهم منها، فقد عكست تقدم الصناع، ومهارتهم الفائقة في صناعة الحلي، والجواهر[99]. وشتهرت فيها اشتهرت صناعة القناديل، والثريات، والأواني، والشمعدانات وغيرها من التحف المعدنية[100].

وعرفت مصر أيضاً صناعة الخشب، بالرغم من أن المصريين كانوا يستوردون بعض الأخشاب، مثل: خشب الأرز، والصنوبر، والأبنوس، والساج؛ وبلغ النجارون والفنانون في الحفر على الخشب مهارة عظيمة[101]. ومن الصناعات التي عرفت في العصر الطولوني صناعة الخزف، من حيث تنوع أشكاله، وطرقه، وأساليب صناعته[102].

ثالثاً: التجارة:

اهتم أحمد بن طولون بإصلاح الوضع التجاري، وإعادة الحيوية إلى التجارة، فشرع في إصلاح العملة، وسك الدينار الطولوني الجديد؛ الأمر الذي أعاد الثقة المالية إلى السوق[103]؛ ولعله أراد من سك العملة التأكيد على استقلاليته[104].

لقد ساعد موقع الدولة الطولونية المتميز بين افريقيا، وأوروبا، وآسيا، في النهضة التجارية؛ فأصبحت مصر في أواخر القرن الثالث وأول الرابع الهجري من أهم مراكز التجارة في العالم الإسلامي[105]؛ وقد سجل الرحالة والمؤرخون هذا

النشاط التجاري في هذه المدة، وذكروا أن سفن المسلمين كانت تجوب البحار كلها، وأصبحت مدينتا بغداد، والإسكندرية تتحكمان في مصائر التجارة، وتحددان أسعار السلع العالمية[106]. وذكر المقدسي أن مصر كان لها نصيب وافر من ازدهار التجارة، فقال: "من كان يريد التجارة فعليه بمصر، أو عدن، أو عمان"[107].

وأشار ابن خرداذبة إلى أن برزخ السويس كان له نشاط كبير في العصر الطولوني، وأن اليهود كانوا يقومون بدور الوسطاء، فكانوا يبحرون من غرب أوروبا، ومعهم الخدم، والجواري، والغلمان، والديباج، والفراء، والسمور، والسيوف حتى يصلوا إلى الفرما، ثم تنقل بضائعهم بالقوافل حتى القلزم، ثم يركبون السفن إلى الهند والصين، ويعودون من أسواق الصين بالمسك، والعود، والتوابل سالكين الطريق نفسه، ومن القلزم إلى الفرما، ثم ينتقلون بالسفن إلى القسطنطينية، أو إلى أسواق غرب أوروبا[108].

وهكذا أصبحت التجارة تدر أموالاً طائلة على البلاد؛ وقد بلغ الخراج وحده أربعة آلاف ألف دينار مع رخاء الأسعار[109]؛ وهذا الازدهار سببه أن ابن طولون عمل على استتباب الأمن، ووفر الحماية للتجارة، يضاف إلى ذلك أنه أقام نطاقاً حول حدود مصر لحماية اقتصادها، ومنع تسرب الكتب، ونفيس الأمتعة إلا بإذنه[110]. لقد شهدت حركة التجارجة الداخلية والأسواق الداخلية نشاطاً واسعاً بفضل السياسة الاقتصادية التي اتبعها الأمراء الطولونيون، وكان للنهضة الزراعية، والصناعية أثر كبير في ارتفاع القدرة الإنتاجية، وزيادة فائض التصدير، ورخص الأسعار[111].

المبحث الثاني: النهضة العمرانية:

التطور العمراني الذي شهدته مصر في العصر الطولوني يعكس الرخاء الاقتصادي فيها، ورغبة أحمد بن طولون في جعل مصر تنافس الخلافة قوة وعظمة، فأسس لها حاضرة تماثل سامراء في قصورها، ورحابة ميادينها، وعظمة مساجدها؛ حرصاً منه على تأكيد استقلاله؛ وقد تحقق ما أراد، فبنى عاصمته وأسماها القطائع؛ لأنه أقطعها قطعاً بين خدمه وحاشيته ورجال دولته، وشيد فيها القصور، وأقام مسجده الجامع الذي ما زال يطاول الزمن ببقائه.

أبرز المنشآت والآثار للدولة الطولونية:

* القطائع:

ارتبط تأسيس القطائع -التي تعد ثالثة العواصم الإسلامية في مصر- بشخصية مؤسسها أحمد بن طولون، الذي نشأها في أحضان الخلافة العباسية، ثم انقلب عليها ليستقل بحكم مصر مؤسساً دولته الطولونية. وعند وصوله مصر نزل في دار الإمارة بمدينة العسكر، لكنه لم يقتنع به؛ خاصة بعد أن استكثر من العبيد والرجال[113]، ولذا بدأ يفكر في تركها؛ وهذا يجسد اتجاهه نحو الاستقلال بمصر، ورغبته في اتخاذ مقرٍّ

جديد لحكومته، ورجال حاشيته؛ لذلك شرع في تأسيس مدينة جديدة تحقق طموحه، وأن تكون عاصمته الجديدة أشبه بالبيئة التي ترعرع فيها[114].

موقع القطائع:

اختيار ابن طولون بناء هذه المدينة إلى الشرق من مدينة العسكر، وإلى الشمال الشرقي من مدينة الفسطاط؛ وذكر المقريزي[115] أن ابن طولون ركب إلى جبل المقطّم، ونظر ما حوله، فرأى إلى الشمال الشرقي من العسكر بقعة من الأرض (مساحتها ميل مربع) لا شيء فيها من العمارة سوى بضعة قبور لليهود والنصارى، فأمر بحرثها، واختط في موضعها مدينته، وبنى القصر، والميدان، وأذن لأصحابه أن يختطوا لأنفسهم حوله. وذكر ابن تغري بردي أن "موقعها من قبة الهواء -التي صار مكانها الآن قلعة الجبل- إلى جامع ابن طولون، وهو طول القطائع. أما عرضها فإنه كان من أول الرميلة سوق البغال والحمير والجمال بجوار القلعة) من تحت القلعة، إلى الموضع الذي يعرف الآن بالأرض الصفراء، عند مشهد الرأس الذي يقال له الآن زين العابدين. وكانت مساحة القطائع ميلاً في ميل"[116]، وقد دخلت القطائع في العسكر، وشغلت الجزء المعروف الآن بقلعة الكبش[117].

تخطيط المدينة:

بنى أحمد بن طولون قصره ومبانيه، ثم قسمت المدينة إلى أحياء مع تسمية كلّ حي، وأُفرد لكل عنصر من عناصر الجيش الطولوني قطعة[118]؛ ونص البلوي على هذا بقوله: "وحوله دور أصحابه وأتباعه، ثم اتصل البناء والعمارة بالمدينة حتى جاوزها، ثم قطعت القطائع؛ وسميت كل قطعة باسم من يسكنها"[119]، ويخترق المدينة شارع كبير يصل بين قصره وجامعه الذي شيده فوق جبل يشكر، وأطلق عليه الشارع الأعظم، تشبيهاً له بالشارع الأعظم الذي كان يخترق سامراء[120]. وقد بنى القواد والضباط دورهم حول القصر[121]، وبنيت المساجد والطواحين، والحمامات، والأفران[122]، وأنشئت الأسواق، وخصصت قطائع خاصة للحرف والتجارات، وسميت بأسماء الحرف، نحو: سوق العيارين، وكان يجمع العطارين والبزازين؛ وسوق الغامبين، وكان يجمع الجزارين والبقالين والشوائين[123]، وأصبحت القطائع وأسواقها تنافس ما كان في الفسطاط من عمران[124].

الملاحظ من كتابات المؤرخين أن تخطيط القطائع جاء تقليداً للأساليب العراقية، ووصف الدكتور زكي محمد حسن تخطيط القطائع أنه تخطيط عنصري عراقي[125]؛ ولعل سبب ذلك أنه أحب أن تكون عاصمته الجديدة أشبه بالبيئة التي نشأ فيها.

وفي عهد خمارويه قُدر لمدينة القطائع أن يظهر فيها الترف؛ فأقيمت فيها المباني الفخمة، وزاد في القصر الذي بناه والده ووسع فيه[126]، وحوّل الميدان إلى بستان، وغرس فيه الأشجار والرياحين، وكسى جذوع الأشجار بالنحاس المذهب،

وأجرى فيها الماء عن طريق أنابيب الرصاص؛ وقد أسهب المقريزي في ذكر العجائب والروائع التي أضافها خمارويه إلى عاصمته[127].

هذا الازدهار العمراني لم يدم طويلاً؛ لأن ولديه الصغيرين لم يتمكنا من تحقيق التقدم الحضاري لمصر؛ لانغمسهما في اللهو والترف والإسراف، ثم تولى الحكم هارون بن خمارويه، وتمكن الخلافة العباسية من استرداد مصر، وسوريا، والقضاء على الدولة الطولونية.

قصر أحمد بن طولون:

بُني قصر ابن طولون تحت قبة الهواء القديمة، وجعل له حديقة غناء، وأُلحق به ميدان فسيح عُرف بالصوالجة[129]، ويقع في الفضاء المعروف الآن بميدان صلاح الدين[128]، وسمي القصر كله بالميدان، وجعل له طريق خاص يخرج منه ابن طولون للصلاة[131]، ووضع للميدان تسعة أبواب مسماة، مثل: باب الميدان الذي خُصِّص لدخول وخروج الجيش، وهكذا سائر الأبواب. ولم تكن هذه الأبواب تفتح كلها إلا في يوم العيد، أو عرض الجيش، أو يوم الصدقة[131]. ويلحق بالقصر اسطبلات خاصة بتربية الخيل.

ولكي يمدّ مدينة القطائع، وقصره بالماء، أمر بحفر بئر في الجنوب الشرقي من القطائع في الموضع الذي يعرف اليوم بالبساتين، وكان الماء يصل إلى القصر من عين في الصحراء الجنوبية عن طريق قناطر معلقة، -لا تزال آثارها باقية إلى اليوم- يرفع إليها الماء بواسطة ساقية[132]. وبعد وفاة ابن طولون خلفه ابنه خمارويه، فزاد في القصر الذي بناه أبوه، ووسع فيه إلى أبعد الحدود، وأضاف إليه قصراً جديداً خصصه لزوجات أبيه، وأفرد لكل واحدة منهن جناحاً خاصاً، وبلغت نفقات بنائه سبعمائة ألف دينار[133].

وبنى في القصر قبة على مثال قبة الهواء، وأسماها الدكة، وجعل لها الستور التي تقي الحر والبرد، وكان يجلس فيها ليشرف على ما في القصر من البساتين، والصحراء، والنيل، والجبل، والمدينة[134]. وأقام أمام القصر بركة طولها خمسون ذراعاً، مُلئت بالزئبق؛ ليتخلّص مما أصابه من الأرق حسب ما أشار عليه طبيبه، وجعل عليها سريراً من أدم يحشى بالريح لينام عليه[135]، وحوّل ميدان الصوالجة إلى بستان كبير، فيه أنواع الأزهار والأشجار، وشيد فيه برج من الخشب الساج المنقوش ليقوم مقام الأقفاص، ورشّه بشتى أصناف الأصباغ، وبلط أرضه، وجعل له مجاري الماء، وأطلق فيه شتى أنواع الطيور، وشيد فيه مجلساً طلى جدرانه بالذهب واللازورد، وجعل فيه مقدار قامة ونصف من الخشب تمثل حظاياه، ونُقشت ملابسهن بالأصباغ العجيبة، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص، والمرصعة بأصناف الجواهر[136]. ولم يبق من ذلك شيء، فقد تحول إلى خرائب طمرها الزمان.

الجامع الطولوني:

الأثر الذي خلد اسم ابن طولون هو جامعه الذي بقي في مدينة القطائع؛ فهو من أبدع المساجد الإسلامية في مصر، وهو ثالث المساجد الجامعة التي شيدت فيها، بعد جامع عمرو بن العاص الذي شيده بعد فتحه مصر عام21هـ- 624م، وجامع العسكر الذي شيد في العصر العباسي سنة 169هـ - 785م على يد الفضل بن صالح بن علي في مدينة العسكر، ولم يبق له أثر الآن[137]. ولا يزال جامع ابن طولون يحتفظ بأغلب عناصره المعمارية منذ أن شيد، إضافة إلى أنه يعد نقطة تحول مهمة في تاريخ العمارة الإسلامية؛ فقد شيد في الطرف الجنوبي لمدينة القطائع، فوق الربوة الصخرية المعروفة بجبل يشكر[138]. ويبدو أن اختياره لهذه البقعة ليكون بمنأى عن فيضانات النيل، فضلاً على أن هذه البقعة كانت تشرف على الميدان الذي أمام مقرّه[139]. ويذكر أن ابن طولون طلب من مهندسه أن يشيد له مسجداً لا تأتي عليه النيران، أو تهدمه مياه الفيضان[140]؛ فحقق له المهندس رغبته، وبناه من الآجر الأحمر، ورفعه على دعامات من الآجر أيضاً[141].

ويجمع المؤرخون على أن أحمد بن طولون بدأ بناء المسجد في عام 263هـ - 876م، وانتهى منه سنة265هـ-879م[142]. وهو جامع مربع الشكل تقريباً (162.50 × 161.73 متر) يتوسطه صحن مكشوف، تحيط به من جوانبه الأربعة أروقة مسقوفة، ويتكون إيوان القبلة من خمسة أروقة[143]. ويوجد بين كل عقدين فوق الدعامة طاقة صغيرة بقصد التخفيف عن الدعامات، وطليت جميع جدران المسجد، ودعاماته، وعقوده بطبقة من الجص، وزخرفت واجهات العقود بزخارف نباتية متصلة، كلها معروفة في الفن البيزنطي، ومنه تسربت إلى القبطي وفنون العراق[144].

وفُتح في النصف العلوي لجدران المسجد الأربعة صفّ من الشبابيك ذات العقود المدببة، عددها مائة وتسعة وعشرون شباكاً، ملئت بالجص المفرغ بزخارف هندسية[145]. ووظيفتها حجب الرياح، والغبار عن المسجد، والسماح بدخول النور بالقدر المناسب، إضافة إلى إسهامها في زخرفة الجامع. وللمسجد اثنان وأربعون باباً، وزعت توزيعاً مناسباً على امتداد واجهات المسجد[146]. والذي يظهر أن سبب كثرة الأبواب هو الرغبة في تسهيل عملية دخول المصلين، وخروجهم من المسجد؛ نظراً لاتساع رقعته.

تعد ظاهرة تعدد المحاريب في الجامع الطولوني من الخصائص المميزة له؛ فقد اشتمل رواق القبلة على ستة محاريب، أقدمها المحراب الرئيس في منتصف جدار القبلة، وهو مجوف؛ وجميع هذه المحاريب من الجص، ومزينة بالكتابة الكوفية، والنباتية[147]. وتوجد وسط الصحن نافورة ماء وسط حوض من الرخام، أنشأها ابن طولون ليشرب منها المصلون[148]. وللمسجد مئذنة فريدة في شكلها، لانظير لها بين

مآذن مساجد القاهرة[149]. وفي العهود التالية أدخلت على المسجد إصلاحات كثيرة، أهم ما قامت به لجنة حفظ الآثار العربية من جهود في سبيل إعادته إلى حالته الأولى.

مسجد التنور:

بنى هذا المسجد أحمد بن طولون سنة 259هـ - 872م في أعلى جبل المقطّم، وراء قلعة الجبل إلى الشرق منها، في موضع تنور فرعون، وجعل له منارة وصهريجاً فيه ماء[150]. وسبب بنائه هو أن جامع العسكر ضاق بالمصلين من جند الأمير وعامة الشعب؛ لذلك جاء الأمر ببنائه[151]. والواقع أننا نجهل شكل هذا المسجد؛ لأنه اندثر ولم يعد له وجود، إضافة إلى أن المصادر التاريخية لم تتحدث عنه بالقدر الكافي الذي يصور تخطيطه، باستثناء المقريزي[152] الذي نص على أنه كان عامراً في عهده فقال:(وأدركته عامراً، وفيه من يقيم به).

البيمارستان العتيق:

من الآثار الطولونية التي أصبحت أثراً بعد عين، وما نعرفه عنه هو أنه كان من المنشآت العمرانية في العصر الطولوني، أسس في عهد الأمير أحمد بن طولون، في مدينة العسكر سنة 259هـ - 873م، وأطلق عليه اسم البيمارستان الأعلى، أو العتيق[153]. أما موقعه فكان في منطقة الكيمان، والصحراء التي تقع بين جامع ابن طولون، وكوم الجارح، وبين قنطرة السد على الخليج، ظاهر مدينة مصر، وبين السور الذي يفصل القرافة عن مصر[154]، وقد اندثر هذا المارستان، وهو أول بيمارستان أنشئ بمصر[155]، واشتمل على خدمات نالت إعجاب المؤرخين. أنفق على تشييده ما يقارب ستين ألف دينار، وأوقف عليه عدة أماكن لضمان استمراره ونجاحه[156]. وأدخل لهذا البيمارستان ضروباً من النظام جعلته في مستوى أرقى من المستشفيات في الوقت الحاضر، وكان من شروط العلاج فيه ألا يعالج فيه جندي، أو مملوك، وإذا جيء بالعليل تنزع ثيابه، ويودع ما معه من مال عند أمين البيمارستان، وتقدم له ملابس خاصة من البيمارستان، ويخصص له مكان، وتوفر له الراحة، ويباشر الأطباء علاجه، ويصرف له الدواء مجاناً[157].

كان البيمارستان يشتمل على قسمين، أحدهما خاص بالذكور، والآخر بالإناث، وكل قسم مجهز بما يحتاجه[158]، ويضم في خزائنه من العقاقير النفيسة والخطيرة التي ليست مثلها إلا في خزائن الملوك والخلفاء[159]. وكان ابن طولون يشرف على البيمارستان بنفسه، فيتفقد خزائنه، ويطمئن على أحوال المرضى[160]، إضافة إلى الاهتمام بالناحية الثقافية[161].

حصن الجزيرة:

هذا الحصن شيده أحمد بن طولون في جزيرة الروضة سنة263هـ - 876م؛ ليكون معقلاً لحرمه، وذخائره، وماله[162]. وسبب إنشائه راجع إلى الخلاف الذي وقع بينه، وبين الموفق طلحة ولي عهد الخليفة العباسي المعتمد، وما تبع ذلك من محاولة

لإخراج ابن طولون من مصر؛ لذلك لم يجد أمامه سوى الدفاع عن نفسه، فأمر ببناء حصن الجزيرة[163]، وأقامه في مكان الحصن القديم الذي قيل إنه كان قائماً وقت فتح عمرو بن العاص لمصر[164]، وأشرف على بنائه بنفسه يقول المقريزي: "كان يتعاهدهم بنفسه في كل يوم"[165]، واستمر العمل في بنائه ما يقرب عشرة أشهر، أنفق خلالها ابن طولون ما يقرب ثمانين ألف دينار ذهباً[166]. لكن لم تصل إلينا آثار منه، ولم تذكر المصادر التاريخية أي وصف له، واكتفت بالإشارة إلى أنه ظل عامراً بالجزيرة في أيام بني طولون حتى أخذه النيل شيئاً بعد شيء[167].

قناطر المياه:

تعد من أشهر العمائر الطولونية في مصر، التي أقامها أحمد بن طولون سنة259هـ- 870 م، بمنطقة المعافر جنوب شرق مدينة الفسطاط[169]، وتعرف الآن بمجرى الإمام[168]، وما زالت أطلالها شاخصة إلى اليوم، متمثلة في برج المأخذ الذي يعد أكثر الأجزاء الباقية تماسكاً.

وأرجعت المصادر سبب بنائها إلى أن أحمد بن طولون خرج يوماً مع جنده، ونال منه العطش، فوجد خياطاً كهلاً، فطلب منه الماء، فأعطاه، وطلب منه الاقتصاد في الشرب، إلا أن ابن طولون شرب أكثره، ولما عاد إلى قصره علم أن سبب هذا الطلب هو أن الماء كان قليلاً وعزيز المنال، فأمر المهندسين بحفر بئر، وبناء القناطر فوقها[170]، وهناك من يرى أن ذلك راجع إلى رغبته بمد عاصمته الجديدة بالماء، نظراً لقلة المياه فيها-وقد مرَّ ذكر ذلك-؛ ويظهر أن هذا هو الأقرب[171].

أما تكاليف البناء فقدرت بمائة ألف وأربعين ألف دينار[172]. وهناك قناطر أخرى شيدت في هذا العهد كبرج المأخذ، المشيد من الآجر[173].

هذه نماذج لبعض العمائر الطولونية التي أنشئت في تلك الحقبة، ومثلت الحضارة والازدهار العمراني التي عاشتها مصر في تلك المدة.

الخـاتمـة

في خاتمة هذا البحث وبعد جمع مادته وربط بعضها ببعضها وتحليلها، توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- انفصال الدول والخروج عن السلطة المركزية للخلافة العباسية وإتّساع رقعة الدولة العباسية وبُعد المسافة بين أجزاء الدولة وعاصمتها؛ كان هذا سبباً في طمع بعض الولاة في الاستقلال، وسيطرة القواد ورجال الدولة على مقاليد الأمور، وقيامهم بإيفاد نواب عنهم لإدارة ولاياتهم، وقد أدى ذلك إلى طمع النواب، وتطلعهم إلى الاستقلال بها، وجعلوا مناصبهم وراثية لأبنائهم.
- تعد الدولة الطولونية أول دولة استقلت بالحكم عن الخلافة العباسية في مصر، والشام، مع بقاء ارتباطها الديني بالخلافة.
- شكل ظهور الدولة الطولونية، بداية عصر جديد في تاريخ مصر الإسلامية، وانتقلت من عصر التبعية المطلقة إلى عصر الاستقلال، وصحب هذا نقلة حضارية أدت إلى ازدهار الحضارة الإسلامية في مصر.
- تعد الدولة الطولونية أول تجربة حكم محلي تحكم فيه أسرة حكماً مستقلاً عن الخلافة العباسية.
- كشف البحث أن بناء الدول يتطلب إرادة؛ وقد جسَّد هذا حكّام الدولة الطولانية الذين ينتمون إلى أصول غريبة عن مصر، ومع ذلك مثّل تاريخهم صفحة رائعة في تاريخ مصر؛ لأنهم كرسوا جهودهم للنهوض بها، واستعانوا بأبناء البلد في الإدارة والتنفيذ؛ لأن أحمد بن طولون كان يرى أن المصريين أقدر على تدبير أمورهم.
- حرص حكام الدولة الطولانية على إدخال أنظمة جديدة في الإدارة والتنفيذ، وتطوير ما كان موجوداً من الأنظمة الإدارية في البلاد.
- تمتع ابن طولون وابنه خمارويه بحنكة عسكرية، نتيجة الخبرات السابقة التي وظفت عند بناء الجيش؛ فحرصا على تنويع المنضمين إلى الجيش، وتجاوز السلبيات التي شهدتها الخلافة العباسية في الاعتماد على عنصر واحد.
- تقدير أحمد بن طولون واستراتيجيته في بناء الجيش بحسب الحاجة؛ ولذا نجد أنه بدأ ببناء جيش بريّ، ثم أسطول بحري مهمته صد الهجوم، والاستعانة به في الفتوحات.
- حرص ابن طولون على تنويع مصادر دخل الدولة، وأظهرت الدراسة اهتمام أمراء الدولة الطولونية بالإصلاحات الاقتصادية للبلاد في المجالات الزراعية، والصناعية، والتجارية.

- عمل ابن طولون على إصلاح النظام النقدي، بإصدار الدينار الطولوني، وقد أدت هذه السياسة إلى تنشيط الزراعة، والصناعة، والتجارة، وكلها عادت على الدولة بأموال ساعدت ابن طولون في الإنفاق منها بسخاء.
- تنوعت مظاهر الجانب العمراني في عهد الطولانيين، وبرز ذلك في عاصمته القطائع، ومسجد ابن طولون، والبيمارستان، والقناطر، وغيرها من المنشآت العمرانية التي تجست في عصره.
- الإصلاحات الاقتصادية الشاملة التي انتهجها ابن طولون، ومَنْ بعده أدتْ إلى كثرة الأموال التي امتلأت بها خزائن دولته، وكانت سبباً في انخفاض الأسعار، وفي نشاط حركة البيع، وغمرت الأسواق بالبضائع والتجار، وأدى ذلك إلى ظهور طبقة اجتماعية تميزت بالثراء الفاحش، وهي طبقة الجند، والقواد، ورجال البلاط.
- انتهت الدولة الطولانية في وقت سريع، لكنها تركت بصمة حضارية في تاريخ مصر، وإنجازاتها ظلت باقية وأصبحت محوراً لتاريخ مصر الإسلامية.
- وضع الحاكم من حيث القوة والضعف ينعكس على تطورات البلد، وقد تجلى ذلك في تطور الدولة الطولانية في عهد بعض أمرائها، وضعفها على أيدي بعضهم.
- تنوع الفن العمراني والحضاري في عهد الدولة الطولانية، من حيث الزخرفة، والنحت، وقنوات الري، والتخصص في إنشاء المرافق الصناعية، والزراعية.

أهم التوصيات:

- على المؤسسات، والأفراد المتخصصين الإسهام في المحافظة على الآثار التراثية، والعناية بها وترميمها؛ لتبقى على مرّ العصور شاهدة على مظاهر حضارة المسلمين.
- إجراء بحوث ودراسات عن الدولة الطولونية، ومنهجها الإداري الذي تمكنت به من فرض سيطرتها.

هوامش البحث:

(1) الطبري، محمد بن جرير(ت310هـ): **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج8، القاهرة: مطبعة دار المعارف، 1966م، ص99.

(2) تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص99، محمد سهيل طقوش: **تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين**، ج8، ط1، بيروت: دار النفائس، 2008م، ص23.

(3) الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس (ت 331هـ): **الوزراء والكتاب**، تحقيق: مصطفى السقا، ومحمد الإبياري، وعبدالحفيظ الشلبي، القاهرة: مطبعة الحلبي، 1938م، ص134. ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي: **تاريخ خليفة خياط**، تحقيق: أكرم العمري، ط2، بيروت: دار القلم ومؤسسة الرسالة، 1977م، ص292. عبد العزيز الدوري: **نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء**، ج1، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980م، ص204-205.

(4) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي كرم عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630هـ): **الكامل في التاريخ**، ج6، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م، ص76، البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ): **فتوح البلدان**، تحقيق ومراجعة: رضوان محمد رضوان، طبعة بيروت: دار الكتب العلمية، 1398هـ/ 1978م، ص418.

(5) تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين، ص27، عبدالعزيز الدوري: **العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي**، بغداد: مطبعة التفيض الأهلية، 1942م، ص232.

(6) العصر العباسي الأول، ص232.

(7) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ): **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ط3، القاهرة: مكتبة المدني، 1383هـ/1964م، ص263. حسن أحمد محمود: **حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني**، القاهرة: دار الفكر العربي للطبع والنشر، 1960م، ص23.

(8) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب المعروف بن واضح الأخباري (ت 292هـ): **تاريخ اليعقوبي**، ج2، النجف: مطبعة الغري، (د.ت)، ص441.

(9) تاريخ اليعقوبي، ص441.

(10) تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص154 – 155، تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين، ص26.

(11) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 345هـ): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق :محمد محيي الدين عبد الحميد، ج4، ط4، مصر: مطبعة السعادة، 1384هـ/1964م، ص36، 39، 50، 51.

(12) تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين، ص6.

(13) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت 813هـ): **النجوم الزاهرة**، ج3، القاهرة: مطبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد، 1956م، ص1. سيدة إسماعيل كاشف: "**أحمد بن طولون**،" القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، 1965م، ص17.

(14) البلوي، عبد الله بن محمد المديني (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري): **سيرة أحمد بن طولون**، تحقيق: محمد كرد علي، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت)، ص33؛ المقريزي، تقي الدين العباسي أحمد بن علي (ت 845هـ): **المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية**، ج1، القاهرة: بولاق، 1294هـ، ص33.

(15) سيرة أحمد بن طولون، ص33 – 36. أحمد بن طولون صاحب الديار المصرية والشامية والثغور،" نعمت البلاد في عهده بالأمن والاستقرار". واتسم بالشجاعة، وحسن السيرة. وذكر ابن خلكان أن أحمد بن طولون ولد في مدينة سامراء، والحقيقة أنه ولد في بغداد؛ لأن سامراء لم تشيد إلا في العام التالي لمولده. ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت 681هـ): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج1، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1997م، ص69، ص173.

(16) سيرة أحمد بن طولون، ص35، أحمد بن طولون، ص18

(17) سيرة أحمد بن طولون، ص36، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص313، النجوم الزاهرة، ج3، ص5.

(18) النجوم الزاهرة، ج3، ص4.
(19) حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، ص26، أحمد بن طولون، ص20، صzz21.
(20) النجوم الزاهرة، ج3، ص5.
(21) النجوم الزاهرة، ص40، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص314.
(22) الكامل في التاريخ ،ج7،ص49.
(23) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص120، 121.
(24) تاريخ الخلفاء ،ص 361.
(25) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت 350هـ): **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، 1426هـ/ 2005م، ص217، سيرة أحمد بن طولون، ص73، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ص23.
(26) سيرة أحمد بن طولون، ص23، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص315.
(27) سيرة أحمد بن طولون، ص80، 81، محمد حمدي المناوي: **مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م، ص54، "أحمد بن طولون"، ص14.
(28) تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين، ص6.
(29) سيرة أحمد بن طولون، ص343.
(30) أحمد بن طولون ، ص112.
(31) النجوم الزاهرة، ج3، ص137، ص140، تاريخ الدولة العباسية، ص6. محمود محمد الجويري: **مصر في العصور الوسطى**، ط1، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1996م، ص104-105. حمدي عبدالمنعم: **"محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية"**، ط1، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2005م، ص67- 68. ستانلي لينيول: **سيرة القاهرة**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1950م، ص91.
(32) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد المغربي (ت 808هـ): **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد، ج1، القاهرة: طبعة لجنة البيان، 1958م، ص208، 209.
(33) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج3، القاهرة: طبعة دار الكتب المصرية، 1322هـ/ 1914م، ص487. حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ج4، ط8، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1973م، ص335.
(34) ابن الداية، أبو جعفر أحمد بن يوسف (ت 330هـ): **المكافأة**، تصحيح وضبط: أحمد أمين، علي الجارم، القاهرة: المطبعة الأميرية ببولاق، 1941م، ص32، 68.
(35) النجوم الزاهرة، ج2، ص138، السيوطي: **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، ج1، القاهرة: المطبعة الشرقية، 1909م، ص463. حسن الباشا: **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**، القاهرة: دار النهضة العربية، 1978م، ص61. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، ص329.
(36) أحمد بن طولون، ص161، مصر في عصر الإخشيديين، ص39، 41.
(37) أنور الرفاعي: **النظم الإسلامية**، القاهرة: دار الفكر، (د. ت)، ص98.
(38) كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص215، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص197، أحمد بن طولون، ص163.
(39) كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص215.
(40) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج14، ص39
(41) ناصر الانصاري:**المجمل في تاريخ مصر**،القاهرة:دار الشروق ،1993م،ص28.

(42) ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت 383هـ): **الفهرست**، تحقيق: رضا تجدد ابن علي زين العابدين، طهران، 1971م، ص234، أحمد بن طولون، ص173.
(43) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ص39.
(44) سيرة أحمد بن طولون، ص7، 9، 11، 112، 145، 147، محمد كامل حسين: "الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية"، **أدب مصر الإسلامية**، سلسلة الألف كتاب، مكتبة النهضة المصرية: العدد (244)، 1959م، ص61.
(45) كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص478، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج1، ص55.
(46) النجوم الزاهرة، ج3، ص19.
(47) أحمد بن طولون، ص226.
(48) كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص512، 514.
(49) كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص514.
(50) سيرة أحمد بن طولون، ص50، تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين، ص58.
(51) أحمد بن طولون، ص65.
(52) **مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي**، ج1، ص55.
(53) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص165، تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين، ص58.
(54) سيرة أحمد بن طولون، ص56.
(55) ابن سعيد، أبو حسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك المغربي (ت 685هـ): **المغرب في حلى المغرب: القسم الخاص بالقاهرة** (النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة). تحقيق: حسين نصار، ج1، القاهرة: دار الكتاب، 1970م، ص82.
(56) سيرة أحمد بن طولون، ص53، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص320.
(57) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص128، النجوم الزاهرة، ج3، ص59.
(58) المكافأة، ص91، 114، 138.
(59) انظر هامش 31 من البحث.
(60) سيرة أحمد بن طولون، ص349. عبد المنعم ماجد: **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر**، ج1، ط3، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1978م، ص219. سيد عبد العزيز سالم، وأحمد العبادي: **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام**، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1993م، ص57.
(61) سيرة أحمد بن طولون، ص349.
(62) أبوكامن شجاع بن أسلم الحاجب: أسند إليه أحمد بن طولون مهمة تولي دار الصناعة، والإشراف على الأسطول وشؤونه، وكان أحد علماء الهندسة البارزين في عصره، وكان فنياً في مهنته "فقد كان يتفقد أمر المراكب المنشأة حتى يحكمها ويجود آلاتها، ويتخير الصناع لها، ويشرف على ما كان منها في الموانئ، ويرفعها من البحر إلى الشاطئ في المشاتي وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها ". سيرة أحمد بن طولون، ص208.
(63) المغرب في حلى المغرب: القسم الخاص بالقاهرة، ج1، ص95.
(64) نوع من السفن التي كانت تصنع خصيصاً للحرب، سعاد ماهر: **البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية**، القاهرة: الكاتب العربي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة، 1967م، ص358.
(65) نوع من السفن الشراعية ذات المجاديف، ذكرها الكندي في حوادث سنة 292هـ، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص263.
(66) نوع من السفن الكبيرة، وتستخدم في الأسطول لنقل المقاتلين والعتاد. المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بالقاهرة، ص74.

(67) وهي القوارب المستخدمة للشحن، وهي من القطع الحربية الصغيرة الملحقة بالأسطول. درويش النخيلي: **السفن الإسلامية على حروف العجم**، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1979م، ص87.

(68) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج3، ص89، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص223.

(69) كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص218.

(70) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص223.

(71) النجوم الزاهرة، ج3، ص109، 136، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص276.

(72) سيرة أحمد بن طولون، ص19.

(73) ذكر البلوي أن ابن طولون كان يهتم بالفلاحين، وكان يقول: (إن الضياع تشبه البستان، والمزارعون شجر، فإن رفق بهم وأحسن القيام بأمرهم ورعوا بإصلاحهم طلعت الثمرة، ونمت وزكت، وإن لم يفعل ذلك هلكت) سيرة أحمد بن طولون، ص190.

(74) الخطط، ج2، ص152 – 157.

(75) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص152. عبد الرحمن عبد التواب: **منشآتنا المائية عبر التاريخ**، القاهرة: المكتبة الثقافية، 1963م، ص96، مصطفى عبد الله شيحة: **الآثار الإسلامية في مصر من الفتح العربي حتى نهاية العصر الأيوبي**، ط1، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1992م، ص31. حسن الباشا: **"الآثار الإسلامية"**، القاهرة: دار النهضة العربية ومطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، 1990م، ص56.

(76) سيرة أحمد بن طولون، ص199، آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج2، ط3، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1360هـ/1941م، ص336.

(77) سيرة أحمد بن طولون، ص199، المكافأة، ص14، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص331، مصر في العصور الوسطى، ص114.

(78) المكافأة، ص14.

(79) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص214. الآثار الإسلامية، ص170.

(80) العلوي، ناصر خسرو: **سفر نامة**، نقله للعربية: يحيى الخشاب، القاهرة، 1945م، ص59.

(81) المكافأة، ص133.

(82) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ): **معجم البلدان**، ج8، بيروت: دار صادر، 1986م، ص129. علي مبارك: **الخطط التوفيقية**، ج18، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م، ص15.

(83) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص128. أحمد بن طولون، ص202.

(84) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص333.

(85) سيرة أحمد بن طولون، ص208، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص232.

(86) عون ،عبدالرؤف :"تاريخ فن الحرب عند المسلمين حتى نهاية القرن الثاني الهجري"،**مجلة كلية الآداب** ،جامعة القاهرة:المجلد(18)ج١٩٥٦،1م،ص162 ٠

(87) سيرة أحمد بن طولون، ص208.

(88) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص333.

(89) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص128، النجوم الزاهرة، ج3، ص59، المكافأة، ج3، ص114 – 138

(90) سعاد ماهر: **النسيج الإسلامي**، القاهرة: الكاتب العربي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة، 1977م، ص69.

(91) زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، ص85 – 87.

(92) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص277، ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد (ت 349هـ): **العقد الفريد**، ج1، القاهرة: طبعة القاهرة، 1316هـ، ص46، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص347.

(93) المقدسي، شمس الدين أبو عبيد الله (ت 387هـ): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، طبعة ليدن، 1877م، ص202. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي (توفي في أواخر القرن الرابع الهجري): **المسالك والممالك**، طبعة ليدن، 1872م، ص101.

(94) الفن الإسلامي في مصر، ص89.

(95) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص305 – 309، أحمد بن طولون، ص202.

(96) النجوم الزاهرة، ج4، ص168.

(97) يعتبر جهاز قطر الندى بنت خمارويه خير شاهد على تفنن الصناع وتفوقهم في صناعة الحلي والجواهر، وذلك ظاهر في الإبداع بالأشكال العجيبة التي أنتجت في تلك الفترة. ينظر: النجوم الزاهرة، ج3، ص61. المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج

(98) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، ط1، الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت 589هـ): **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق: السيد الباز العريني، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.ت)، ص77. حمدان عبد الحميد الكبيسي: **أسواق بغداد حتى العصر البويهي**، بغداد: منشورات وزارة الثقافة والفنون، 1979م، ص117.

(99) حسين مؤنس: **عالم الإسلام**، القاهرة: دار المعارف، 1973م، ص335.

(100) الفن الإسلامي في مصر، ص94 – 99.

(101) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص124، سيرة أحمد بن طولون، ص53، 54، الآثار الإسلامية، ص255.

(102) عبد الرحمن فهمي: **صنع السكة في فجر الإسلام**، القاهرة: مطبوعات متحف الفن الإسلامي، مطبعة دار الكتب المصرية، 1957م، ص134، أنستايس الكرملي: **النقود العربية وعلم النميات**، القاهرة، 1939م، ص54 – 57.

(103) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص371.

(104) حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، ص56.

(105) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن أحمد (ت 300هـ): **المسالك والممالك**، بغداد: مكتبة المثنى، 1989م، ص153، المسعودي: **التنبيه والإشراف**، مراجعة: عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، 1357هـ/ 1938م، ص20.

(106) التنبيه والإشراف، ص35.

(107) التنبيه والإشراف، ص154.

(108) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص186.

(109) المغرب في حلى المغرب: القسم الخاص بالقاهرة، ج1، ص78 – 114.

(110) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص35، المكافأة، ص61، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص412.

(111) يؤكد البلوي على نشاط الاقتصاد في مصر في العصر الطولوني فيذكر أن أسواق القطائع كانت متخصصة في كل لون من ألوان التجارة، وأنها كانت مزدحمة بالباعة والمشترين. سيرة أحمد بن طولون، ص53.

(112) سيرة أحمد بن طولون، ص53، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص315.

(113) فريد الشافعي: **العمارة العربية في مصر**، عصر الولاة"، ج1، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970م، ص243، الفن الإسلامي في مصر، ص58.

(114) العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ج1، ص315.

(115) العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ج3، ص14.
(116) العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ج3، ص14.
(117) سيرة أحمد بن طولون، ص53–54، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص315، ابن دقماق، إبراهيم محمد بن أيدمر العلائي (ت 809 هـ): **الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها**، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ج4، بيروت: دار الآفاق، (د. ت)، ص121.
(118) سيرة أحمد بن طولون، ص53.
(119) سيرة أحمد بن طولون، ص45.
(120)العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ج1، ص423.
(121) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص313.
(122) سيرة أحمد بن طولون، ص54. المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص315.
(123) العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ص424. عبد الرحمن زكي: "القاهرة"، ص7.
(124) العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ص58.
(125) الفن الإسلامي في مصر،ص 58.
(126) النجوم الزاهرة، ج1، ص318 – 356.
(127) محمود عكوش: **تاريخ مصر ووصف الجامع الطولوني**، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1927م، ص10.
(128) الصوالجة هي الكرة التي يلعب بها بالمضرب من فوق ظهور الخيل، وتشبه لعبة البولو في الوقت الحاضر. شحاتة عيسى إبراهيم: "القاهرة"، القاهرة: دار الهلال 1370هـ/ 1970م، ص39.
(129) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص313 – 315.
(130) سيرة أحمد بن طولون، ص4، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص315، النجوم الزاهرة، ج3، ص61.
(131) الفن الإسلامي في مصر، ص67.
(132) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص216، النجوم الزاهرة، ج3، ص53 –57. "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري"، ج1، ص209، "سيرة القاهرة، ص57.
(133) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، ص317، النجوم الزاهرة، ج3، ص55، محمود رزق محمود:" المجتمع المصري في العصر الطولوني"، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، 1985م، ص227.
(134) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج3، ص317، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ج4، ص131، ابن إلياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت 930هـ): **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق: محمد مصطفى، ج1، ط2، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1402هـ/ 1982م، ص170.
(135) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج1، 317، النجوم الزاهرة، ج3، ص53.
(136) حسن عبد الوهاب: **تاريخ المساجد الأثرية**، ج1، القاهرة: 1946م، ص32، تاريخ مصر ووصف الجامع الطولوني، ص32.
(137) الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ج5، ص123، كمال الدين سامح: **العمارة الإسلامية في مصر**، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1970م، ص98 – 102.
(138) اسم مهندس الجامع مجهول، وذكر بعض المؤرخين أنه كان بيزنطياً، وقال آخرون إنه قبطي، ولعل الشبه الكبير بين مسجد ابن طولون ومسجد المتوكل في سامراء، يحمل على الاعتقاد بأنه مهندس عراقي،" تاريخ مصر ووصف الجامع الطولوني"، ص28.

(139) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص266.
(140) يفسر المؤرخون، استخدام المهندس لمادة الآجر في البناء بأنه جاء تحقيقاً لرغبة ابن طولون الذي قال له إنه يريد بناءً لا يتأثر بالحريق ولا بالغرق، فبناه من الجير والرماد والآجر الأحمر المقاوم للنار إلى السقف ولم يجعل فيه أساطين من الرخام؛ لأنه غير مقاوم للنار (فإنه لا صبر له على النار، فبناه هذا البناء). الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، جـ4، ص123. عفيف البهنسي: **الفن الإسلامي**، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1986م، ص76.
(141) العمارة الإسلامية في مصر، ص98.
(142) تاريخ المساجد الأثرية، ج1، ص35، العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ج1، ص469.
(143) الفن الإسلامي في مصر، ص77.
(144) تاريخ المساجد الأثرية، ج1، ص36، وذكر أحمد فكري أن عددها 128 نافذة فقط، مساجد القاهرة ومدارسها، ص111.
(145) الآثار الإسلامية، ص450.
(146) الفن الإسلامي في مصر، ص72، تاريخ مصر ووصف الجامع الطولوني، ص32.
(147) الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ج4، ص23، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص268، تاريخ المساجد الأثرية، ج1، ص42.
(148) العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ج1، ص481، الفن الإسلامي، ص176.
(149) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص455، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص259.
(150) الفن الإسلامي في مصر، ص35.
(151) الفن الإسلامي في مصر، ج2، ص455.
(152) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص406، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ج4، ص44، محمد محمد أمين: **الأوقاف والحياة الاجتماعية بمصر**، القاهرة: 1980م، ص152.
(153) أحمد عيسى بك: **تاريخ البيمارستان في الإسلام**، ط1، بيروت: دار الرائد العربي، 1401هـ/ 1981م، ص68 – 69.
(154) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص402.
(155) المغرب في حلى المغرب: القسم الخاص بالقاهرة، ص132، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص246 – 247، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص164.
(156) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص405.
(157) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت 668هـ): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق: نزار رضا، ج1، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1965م، ص310، سيرة أحمد بن طولون، ص180، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص405. ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (ت 614هـ): **رحلة ابن جبير (الرحلة)**. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1399هـ/ 1979م، ص52.
(158) رحلة ابن جبير (الرحلة)، ص180.
(159) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج3، ص377، النجوم الزاهرة، ج3، ص122.
(160) "تاريخ البيمارستان في الإسلام"، ص74.
(161) سيرة أحمد بن طولون، ص86 – 87، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص218.
(162) سيرة أحمد بن طولون، ص86، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص378، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص180.
(163) العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ج1، ص52.
(164) العمارة العربية في مصر، ج2، ص180.

(165) سيرة أحمد بن طولون، ص87، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص180.
(166) المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص178، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ج4، ص70.
(167) ذكر المقريزي أن قناطر ابن طولون عند بركة الحبش، ووصف عمارتها أنها ليس لها نظير، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص457.
(168) العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ج1، ص222.
(169) سيرة أحمد بن طولون، ص180 – 182، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ج4، ص58. المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص457.
(170) الفن الإسلامي في مصر، ج1، ص64، 65.
(171) العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ج1، ص53، العمارة العربية في مصر، عصر الولاة، ص222.
(172) سيرة أحمد بن طولون، ص351، في حين ذكر المقريزي أن التكلفة بلغت أربعين ألف دينار، المواعظ والابتكار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج2، ص457.
(173) القاهرة، ص44.

ملحق رقم (1)
موقع القطائع

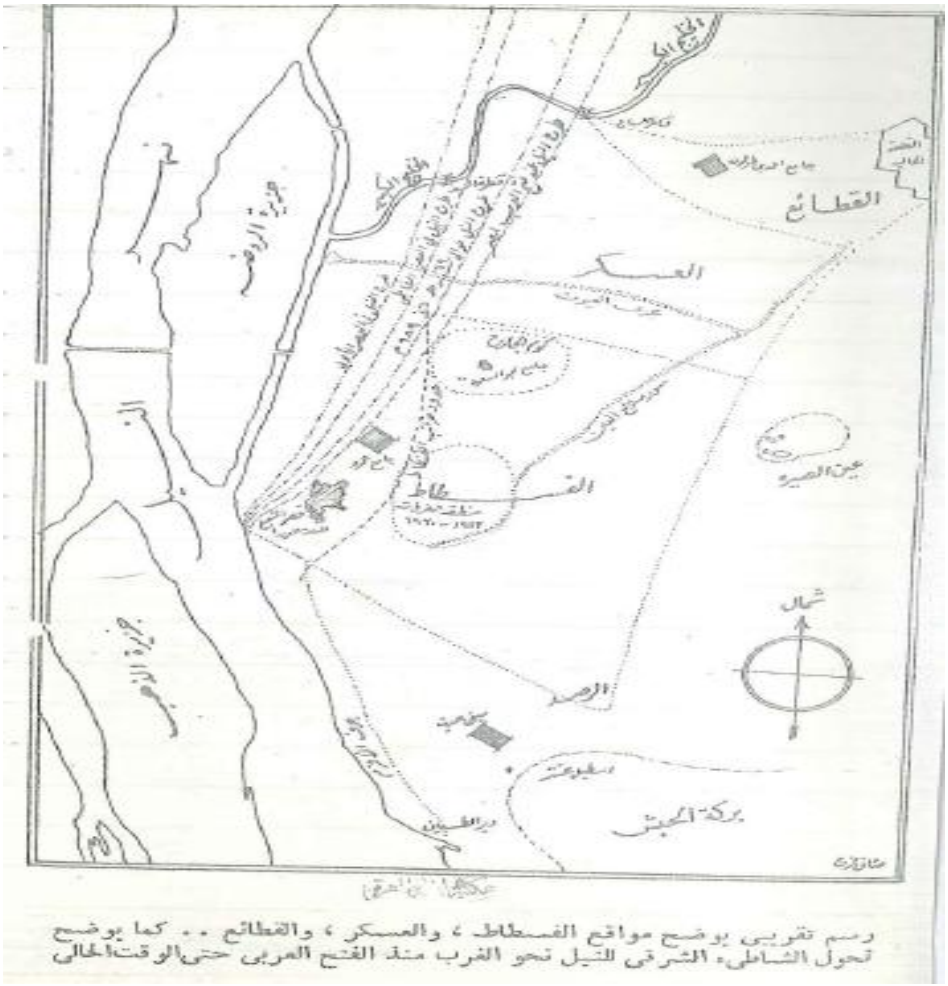

رسم تقريبي يوضح مواقع الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع .. كما يوضح تحول الشاطىء الشرقي للنيل نحو الغرب منذ الفتح العربي حتى الوقت الحالي

شحاته عيسى إبراهيم: القاهرة، ص49.

ملحق رقم (2)
جامع أحمد بن طولون

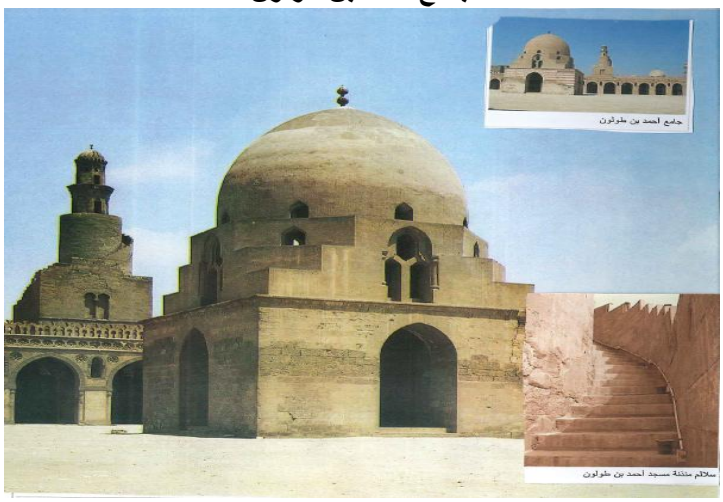

عفيف البهنسي: الفن الإسلامي، ص419.

ملحق رقم (3)
تخطيط الجامع الطولوني

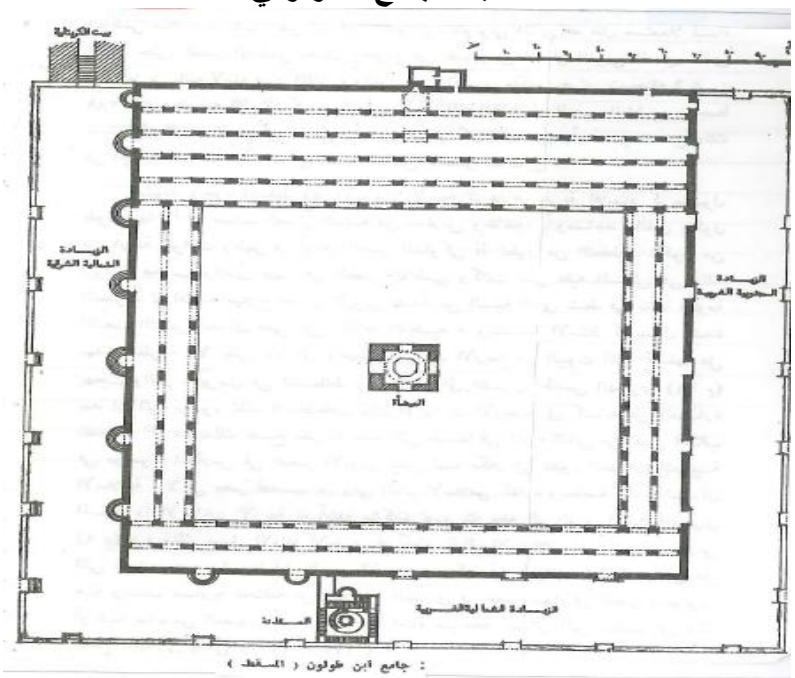

فريد الشافعي: العمارة العربية في مصر عصر الولاة، ص462.

ملحق رقم (4)

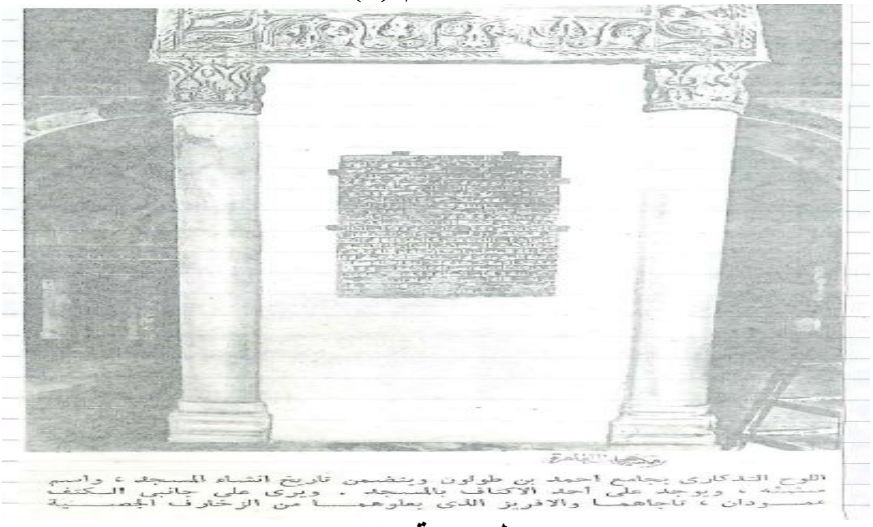

اللوح التذكاري بجامع أحمد بن طولون ويتضمن تاريخ انشاء المسجد ، واسم منشئه ، ويوجد على أحد الأحناف بالمسجد . ويرى على جانبي الكتف عمودان ، تاجاهما والافريز الذى يعلوهما من الزخارف الجصية

ملحق رقم (5)

نماذج لبعض الآثار الطولونية

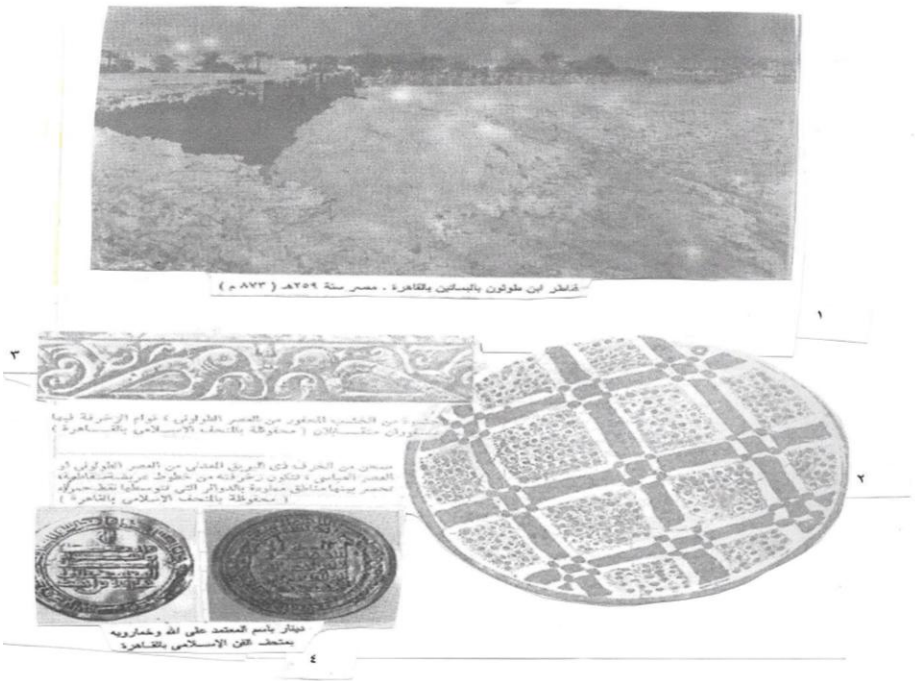

قناطر ابن طولون بالبساتين بالقاهرة . مصر سنة ٢٥٩هـ (٨٧٣ م)

١

٢

٣

دينار باسم المعتمد على الله وخماروويه بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة

٤

شحاته عيسى إبراهيم: القاهرة، ص51.

(The Civilizational and Constructional Phenomenon in Egypt)

ABSTRACT

The Islamic Civilization is a great edifice where all the people of the earth contributed in building it. Egypt was a leader in this contribution in building the Islamic civilization. The last half of the third century of Higra was a new era in the Islamic history of Egypt, where the Tolonic estate began in Egypt. This era was the beginning of advancement in the history of Egypt's Civilization. This was obvious in the Civilized Phenomena that happened in Egypt in that era.

The period that proceeded the Tolonic estate was know by under development in all aspects of life. This was due to the Abbasi policy of changing the rulers every time so as not to make them greedy of the throne. Ahmad bin Tolon had ruled Egypt. He put out the revolutions against him. He secured the country and people and people admitted his leadership.

All the figures of power were at his hand and he become a prince of Egypt. Egypt began a new era from that period which is called the self independence.

The political development in his age was paralled with a civilized development, Ahmad Bin Tolon was a ware to make this era full of the civilized a chievments so as to assesst his throne and to make the country flourish and this reflexes his true desire to complete Iraq by making Egypt a glorious civilization. He wants to make the throne in Egypt in a high standard not less than the caliph throne.

Ahmad Bin Toloun had proved that he was an example of justice and he was a fair ruler. He was a man of the state. He took care of his country and he wasn't occupiedby his ambitions in invading other countries. He took care of everything that made a better life for his people. He made many reforms for his state's affairs. His era was an era of peace, prosperity, civilization, construction and arts. He left terrific monuments in his era, a lot of them are still today.